

خدمات علماء المذهب للمرشد المعين ، شرحاً وتديلاً

كلمة الشيخ أحمد به محمد به حسان



تمهيد

لئن كان أهل الجهل والحمقى يعتقدون المجد والعزة والسيادة في تحصيل الأموال والمتاع والمناصب، فإن العقلاء من الناس يرون أن المجد كل المجد والسيادة كل السيادة في تحصيل العلم وكتابته وبثه ونشره.

قال أبو علي صالح بن محمد البغدادي: كان ببغداد شاعران أحدهما صاحب حديث، والآخر معتزلي، فاجتاز بي المعتزلي يوماً فقال لي: يا بني كم تكتب؟ يذهب بصرك، ويحدودب ظهرك، ويزداد فقرك، ثم أخذ كتابي وكتب عليه إن القراءة والتفقه والتشاغل بالعلوم أصل المذلة والإضاعة والمهانة

قال: ثم ذهب، وجاء الآخر فقراً هذين البيتين فقال: كذب عدو نفسه، بل يرتفع ذكرك، وينتشر علمك، ويبقى اسمك مع اسم رسول الله ﷺ، ثم كتب هذين البيتتين:

إن التشاغل بالدفاتر والكتابة والدراسة

أصل التقية والتزهد والرياسة والسياسة

وصدق هذا الشاعر الأخير، حيث أخبر بما يدل عليه الواقع وتؤيده الشواهد من أن العلم هو أصل السيادة والرياسة، وأن الكتابة والتصنيف يخلدان العالم في ذاكرة التاريخ، فيظل اسمه يتردد مع أصداء الزمن مادامت كتبه ومصنفاته قائمة، في حين تنسى أسماء كثير من الملوك والسلاطين والأمراء الذين كانوا في أزمنتهم ملء السمع والبصر، إذ أبى الله إلا أن يرفع من يرفع بالعلم، ويخفض من يخفض بالجهل.

لكن ما كل من صنف أو ألف ينطوي تحت هذا الباب، وينطبق عليه هذا المعنى، لأن التصنيف والتأليف كأي عمل من أعمال الخير لا يكتب لشيء من ذلك القبول والرواج إلا بصلاح النية، وإخلاص القصد، وتطهير السريرة، واستحضار نفع المسلمين بما يدون ويكتب، فأیما تأليف أو تصنيف خلا عن ذلك فإنه سيطوى حتماً في تلافيف غياهب النسيان، لأن «كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل»، كما قال الربيع ابن خثیم رحمته الله.

وما أكثر الكتب والمصنفات التي صنف في ميادين العلوم المختلفة، وعبر مراحل التاريخ المتعاقبة، غير أن ما أهمل منها أضعاف أضعاف ما انتشر ذكره في ساحات العلم، إذ لم يبق متداولاً منها بين الناس إلا ما علم الله الإخلاص والصدق من مؤلفيها، واطلع على حسن نياتهم في تدوينها وكتابتها.

وقد قال ابن عبد البر: بلغني عن مطرف بن عبد الله قال: قال لي مالك رحمته الله: ما يقول الناس في موطأي، فقلت له: الناس رجالان، محب مطر، وحاسد مفتر، فقال له مالك: إن مُد بك العمرُ فسترى ما يراد به وجه الله تعالى.

ولقد أصاب رحمته الله في قوله، فإن العمل إذا أريد به وجه الله لا غير، عم نفعه، وانتشر ذكره، وارتفع شأنه، وتوالى عطاؤه مع توالى الأيام والليالي كالنهر لا ينقطع سيله وفيضه.

وهذا ما ينطبق تماماً على هذا المتن المبارك الموسوم بـ "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" للشيخ العالم العامل سيدي عبد الواحد بن علي بن عاشر الأنصاري الأندلسي الفاسي (ت 1040هـ) رحمته الله برحمته الواسعة، وهو متن بسيط وجيز اعتمد مؤلفه على ما به الفتوى من مشهور مذهب مالك، ولم يعدل عن ذلك سوى في موضعين فقط.

وقد وضع الله تعالى القبول لهذا النظم في حياة ناظمه، فتم اعتماده في حلقات التعليم والتدريس شرقاً وغرباً، وأقبل الناس على حفظه وتحصيله، حتى حفظه الصغير والكبير والذكر والأنثى، وأضحى له من الصيت بين متون المذهب

المالكي ما جعل العلماء يسخرون جهودهم في بسط عباراته، وشرح أبياته، وتوضيح مسأله ومشكلاته، فبرزت من خلال ذلك الشروح والحواشي والتعليقات والتقييدات التي يصعب على الباحث في مثل هذه المداخلة المحدودة إحصاؤها والإشارة لها لكثرتها وانتشارها.

المطلب الأول: الشروح والحواشي أولاً: الشروح والحواشي من خارج الإقليم أ. الشروح

وهي كثيرة جداً ويمكن الإشارة هنا لبعض منها، ومن أهم ذلك

- 1 - الشرح الكبير على المرشد المعين الشيخ محمد بن أحمد أبي عبد الله ميارة الأكبر (ت1072هـ) وهو المعروف بميارة الكبير وب "الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين"، والشارح يعد من تلامذه صاحب المتن.
- 2 - الشرح الصغير على المرشد المعين للمؤلف السابق، ويسمى الميارة الصغرى أو مختصر الدر الثمين.
- 3 - شرح المرشد المعين لعبد الله بن محمد العياشي المالكي (ت1073هـ).
- 4 - سلك الجواهر في شرح ألفاظ ابن عاشر لمحمد بن عبد العزيز بن أبي بكر بن أحمد الرسموكي الجزولي.
- 5 - شرح المرشد المعين لسالم بن أحمد المعروف بابن أحمد الشاوي السريفي ثم القصري (ت1108هـ).
- 6 - إرشاد المريدين لفهم المرشد المعين، لعلي بن عبد الصادق أبي الحسن بن أحمد بن عبد الصادق بن محمد الجبالي الطرابلسي (ت1138هـ).
- 7 - شرح على المرشد المعين لعبد السلام بن عثمان التاجوري.
- 8 - شرح على المرشد المعين لمحمد بن عبد الصادق الدكالي أبي عبد الله (ت1175هـ).

- 9 - المورد المعين في شرح المرشد المعين لمحمد بن الطيب بن عبد السلام أبي عبد الله القادري (ت1187هـ).
- 10 - شرح المرشد المعين لمحمد بن أحمد بن المرباط الأذوزي (ت1221هـ).
- 11 - عمدة الطالبين لفهم ألفاظ المرشد المعين لمحمد بن محمد بن عبد الله بن يعقوب السملالي (ت1122هـ).
- 12 - شرح على المرشد المعين لمحمد بن أحمد أكرام السوسي (ت1224هـ).
- 13 - شرح على المرشد المعين لمحمود مقديش أبي الثناء (ت1229هـ).
- 14 - شرح على المرشد المعين للعربي بن أحمد بن التاودي بن سُودة أبي حامد (ت1229هـ).
- 15 - شرح على المرشد المعين لعبد الرحمن الحايك السعيد (ت1237هـ).
- 16 - الكوثر المعين على المرشد المعين للشيخ الطيفور الأيبوركي الأسغاركيسي
- 17 - هداية الأمين في شرح المرشد المعين لأحمد بن أحمد بن الطالب محمود بن أعمر إيدوعيشي (ت1257هـ).
- 18 - التقريب والتبيين في حل ألفاظ المرشد المعين" للشيخ محمد العربي بن محمد بن الهاشمي العزوزي الزرهوني (ت1260هـ).
- 19 - منهل الماء المعين في شرح المرشد المعين لمحمد بدر الدين بن الشاذلي أبي عبد الله المدعو بن الحسن الحمومي (ت1266هـ).
- 20 - مفيد العباد سواء العاكف فيه والباد، شرح ابن عاشر لأحمد بن البشير الغلاوي (ت1277هـ).
- 21 - شرح على المرشد المعين لعلي بن سليمان الدمناتي البجمعوي (ت1306هـ).
- 22 - شرح كبير على المرشد المعين لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبد القادر التادلي (ت1311هـ).

23 - شرح صغير على المرشد المعين للمؤلف السابق سماه (المعين على المرشد المعين).

24 - شرح كبير على المرشد المعين لإبراهيم بن محمد البخري (ت1317هـ).

25 - شرح صغير على المرشد المعين للمؤلف السابق.

26 - شرح مورد الشارعين في قراءة المرشد المعين لعبد الصمد بن التهامي بن المديني جنون أبي عبد الله (ت1352هـ).

27 - شرح ابن عاشر لمحمد يحيى بن سليمة اليونسي (ت1354هـ).

28 - الحبل المتين على المرشد المعين لمحمد بن المؤقت المراكشي السملالي (ت1369هـ).

29 - هداية المسترشد إلى فهم المرشد لأحمد بن محمد بن الحسن الرهوني الخمسي التطواني.

30 - إتحاف المباشر بنظم ابن عاشر لمحمد بن علي بن عمرو بن علي الأغزوي.

31 - قرة العين في شرح المرشد المعين لمحمد بن محمد السالك الجرنى المراكشي.

32 - غنية المسكين في شرح المرشد المعين لمحمد بن مبارك الهشنوكي الدرقاوي المراكشي.

33 - المباشر على ابن عاشر لمحمد بن أعمار النابغة الغلاوي (ت1245هـ).

ب - الحواشي والتقييدات

مع كثرة الشروح التي وضعت على منظومة ابن عاشر كما ذكرنا آنفاً، إلا أن شرحي الشيخ ميارة الكبير والصغير نلا الصدارة بين تلك الشروح، حيث تلقفهما الناس وتلقوهما بالرضى والقبول، فراجا رواجاً كبيراً في الأوساط العلمية خاصة

ببلاد المغرب الأقصى، فاندفع العلماء بسبب ذلك إلى وضع حواش وتعليقات عليهما لتكتمل بهما الفائدة، فكان من أبرز تلك ذلك الحواشي:

1 - حاشية على شرح ميارة لأبي عبد الله محمد الطالب بن حمدون بن الحاج السلمي (ت1273هـ).

2 - حاشية على ميارة الصغير لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبد القادر التادلي (ت1311هـ).

3 - حاشية على شرح ميارة الكبير على المرشد المعين لمحمد بن أحمد أبي عبد الله الرهوني (ت1230هـ).

4 - حاشية على ميارة الصغير لأحمد بن العالم القادري (ت1337هـ)، سماها "فتح القدير".

5 - حاشية على شرح ميارة على المرشد المعين لأبي العباس أحمد بن محمد بن الحسن بناني الرباطي (ت1340هـ).

6 - حاشية على ميارة على المرشد المعين للمهدي بن محمد بن الخضر العمراني الوزاني (ت1342هـ)، سماها (الكواكب النيرة والجواهر المختارة على ما تضمنه شرح المرشد المعين للشيخ ميارة).

7 - حاشية على شرح ميارة للمرشد المعين لمحمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني (ت1345هـ).

8 - تعليق على الدر الثمين في شرح المرشد المعين لأبي العباس أحمد بن علي البوسعيدي الهشتوكي السوسي (ت1046هـ).

ثانيا: شروح علماء توات على ابن عاشر

لقد أسهم علماء توات في خدمة هذا المتن بالإقبال عليه شرحا وتعليقا وتقييدا، ونذكر هنا أهم ما وقفنا عليه من هذه الشروح وهي كالتالي:

1 - تسهيل الإرشاد للدرر الثمينة من الأصول والفروع على مذهب عالم المدينة للشيخ سيدي محمد بن سيدي محمد العالم الزجلاني، وهو كما قال عنه

الفقيه سيدي العربي التمنيطي «شرح عجيب، أغرب فيه النقول الغاية، وبالغ في ضبط ألفاظه ومعانيه النهاية" بأسلوب واضح ومنهج رصين».

وقد كان المؤلف رحمه الله يورد الإشكالات المختلفة، ويستعرض في بعض المواضيع الوقائع التاريخية المحلية المتعلقة بالمسألة المتكلم عنها، وذلك حينما تدعوه الحاجة لذكرها كما فعل لدى كلامه عن شرائط وجوب الجمعة حيث قال: «المسألة الثانية: فيما لو ترك أهل بلد السنة في حمل السلاح وإعداده للنائب، فقد سئل الوالد رحمه الله في ذلك في محل درسه عن أهل بلده وإهمالهم لذلك اتكالا على الجاه في كونه قادحا في جمعتهم أم لا؟ فأجاب بأنه لا يتعذر عليهم إعداده لو احتاجوا إليه، ولم ير أمن الجاه وحده كافيا خلاف ظن جهلة العوام، وحدثني رحمه الله عن الفقيه المتقن الصالح الزاهد سيدي أحمد الدولا من أهل الكبله، أنه كان لا يصلي الجمعة في بلدنا في وقته، وأظنه قال: ويصليها في قصر زجل، لأنه كان حينئذ قاراً بأهله فيحتمل أنه يرى أن القرار لا يتحقق إلا بوجود السلاح، وكثرة الرجال، والأمران معدومان في وقته، ويحتمل وهو الظاهر الذي كنت أظنه قبل أنه تحرز بذلك من مخالفة المشهور لمنعه إحداثها بقرب ما جاورها».

كما التزم الشيخ في هذا الشرح بمنهج النقد والتسديد والتقويم لما اعتاده الناس من عادات وأعراف تخالف النصوص الشرعية، وذلك عن طريق التنبيه والتوجيه والتحذير حيث قال رحمه الله: «المسألة الثانية فيما عمت به البلوى كثيرا من إعادتهم الجمعة ظهرا أفذاذا بعد إقامتها، فقد كان الوالد رحمه الله ينكر ذلك، وإنكاره حق وصواب، لأنهم إن عملوا على الإعادة كلهم عادة، فقد اتخذوا الجمعة هزوا ولعبا، وبعض القرى يعيد إمامهم وحده، فيبطل عليهم صلاتهم إن صلاها بنية النافلة، وإن صلاها بنية الفرض، فالله ورسوله ما أوجب عليه إلا إحدى الصلاتين فأيتهما بدأ بها لم يجز له أن يستدرك أخرى، وبدؤه

بالظهر أشد لما يؤدي إليه من الإبطال المذكور، وأي فسق أعظم من هذا في الاسلام، وممن يعتقد فيه العدالة أخرى».

ولم يسلم الشراح المتقدمون كذلك من نقد الشارح لهم فيما يرى أنهم جانبوا فيه الصواب، ومن الأدلة على ذلك نقده للإمام الطرابلسي فيما يتعلق بمسألة المال الحرام، فبعد أن أطال النفس في انتقاده للشارح فيما ذهب إليه بخصوص هذه المسألة في شرحه للمتن المذكور، وأظهر غلظه فيها، أعقب هذا قائلاً: «ويكفي دليلاً على غلظه هنا، ما جزم به قبل في (وليتلافى ممكناً...)، وهو أنه لا يصح الندم بدون رد المغصوب، فنعوذ بالله من آفة التصنيف».

2. إتحاف ذوي الإنصاف والمبرة بالصواب في ضبط وما عدا وجه وكف

الحرّة"، للشيخ سيدي محمد بن سيدي محمد العالم الزجاجي.

وهو كتاب يرتبط بمتن المرشد المعين، لكن البحث فيه كان يتناول مسألة من مسائل النحو، ألفه الشيخ لبيان الصواب في ضبط قول ابن عاشر «وما عدا وجه وكف الحرّة...»، وكان سبب تأليفه للكتاب هو الحكم بين الشيخين سيدي علي السوسي، وسيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي إثر الخلاف الذي حصل بينهما بخصوص هذه المسألة، وبرغم أن الهلالي شيخ شيخه، وهو أقرب إليه من السوسي، إلا أن هذا لم يحمله على التعصب والانحياز إليه، ولم يمنعه من مناقشة قولهما مناقشة علمية هادئة، حيث يقول رحمته الله في صدر الكتاب المذكور: «وبعد، فهذا تعليق لطيف يتضمن نصرة الإمام القدوة العالم الحجة أبي الحسن سيدي علي السوسي، بما تنوسي من الأسس، في توجيهه لضبط الشيخ أبي عبد الله ميارة الفاسي في شرحه لقول المرشد المعين:

وما عدا وجه وكف الحرّة يجب ستره كما في العورة

ولم أُخلِه من التنبيه على ما في طوره وزياداته من الأوهام المتدافعة في صناعتي النحو والبيان، التي قصد بها إلى الدفع في وجه مخالفه في ذلك الميدان، ولا آلو جهدا في أثناء شرح ما هنالك من إقامة الأعذار لنادرة الأعصار، وغرة الأمصار، شيخ الدنيا جلالة وعلما، وسابقها إلى كل عارفة حسا ومعنى، أبي العباس سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي...».

3 - تحرير التبيين لمعاني المرشد المعين للشيخ سيدي العربي بن أبي مدين التمنيطي، وهو شرح راعى فيه المؤلف البساطة والوضوح حيث يقول في مقدمة الشرح: «انقذ في ذهني في بعض الأيام، وضع شرح لطيف عليه - أي على المرشد المعين - مبين للمرام، بلا إفراط ولا تفريط المذهبين للغرام، لما رأيت في هذا الزمان المولع فيه بالدنيا والملام، من قصور الهمم عن مطالعة الشروح العظام»⁽¹⁾.

4 - حاشية على المباشر لشرح ابن عاشر للغلاوي للشيخ سيدي أحمد بن سيدي عبد الرحمن الأنصاري الأنزجيري، وهي حاشية نفيسة حل فيها مشكلات، وفسر مبهمات، وقيد مطلقات، وخصص عمومات، ونبه على غوامض مهمات، وأضاف فوائد عديدة، وأمثلة مفيدة.

5 - تقارير رائقة وفوائد فائقة على نظم المرشد المعين للشيخ سيدي عبد القادر بن الحاج عبد العزيز بن سالم بن امحمد بن يوسف أصلاً ونسباً المطارفي منشأ وداراً.

6 - تقارير متوسطات مختصرات على المرشد المعين للشيخ سيدي أحمد بن محمد بن عبد القادر البوحمدي

7 - الفوز المبين على المرشد المعين للشيخ سيدي مولاي الحبيب العلوي (مطبوع).

1) التمنيطي: تحرير التبيين لمعاني المرشد المعين، الورقة الأولى منه مخطوط خزانة البلبالين، برينكان، ص 01

المطلب الثاني: التدليل والتأصيل

أولاً: ظهور الحاجة إلى التدليل

لم يتعرض معظم الشراح الأوائل سواء لمتن ابن عاشر أو غيره من المتون الأخرى لبسط أدلة المسائل وإرجاعها لأصولها وقواعدها التي تعتمد عليها وتستند إليها كما كان الشأن بالنسبة للمراجع الكبرى للمذهب المالكي كالمدونة لسحنون، والاستذكار والتمهيد لابن عبد البر، والذخيرة للقرافي، ونحو ذلك، وكان لهذا الأمر عند المتأخرين ما يبرره في وقته وزمانه.

لكن ظهر مؤخراً إلحاح كبير وقوي في هذا الباب، وأصبح التدليل والتأصيل أكثر من ضرورة بقصد صد الهجمات والافتراءات التي تستهدف التهوين والتقليل من شأن كتب فقه مذهب مالك بالذات، واتهامه بالاعتماد على الآراء، وخلوه عن الأدلة، وابتعاده عن الكتاب والسنة، وهي تهمة كبيرة يدرك تفاهة الناطقين بها كل من قرأ ودرس فعلم أن أول من تصدى لشرح كتب الحديث كصحيح البخاري ومسلم هم مالكية المذهب كالداودي والخطابي وابن التين والمازري والقاضي عياض وابن العربي والقرطبي وغيرهم من كبار علماء المالكية الذين شهد التاريخ عنهم أنهم أكثر العلماء ارتباطاً بالسنة والأثر.

ومن أجل نصرة المذهب المالكي والدفاع عنه كان لزاماً على العلماء الراسخين والفقهاء المتمكنين أن يتصدوا لرد هذه الاتهامات وإبطال هذه الافتراءات من خلال القيام بخدمة متون المذهب ومختصراته بواسطة الشرح القائم على التدليل والتعليل والتأصيل، وقد انبرى والحمد لله ثلة من العلماء الأعلام في عصرنا الحاضر لهذا الشأن، فبذلوا جهوداً مشكورة في هذا المجال، فظهر نفعها وتجلت ثمرتها، وانعكست بالخير على طلبة العلم الحريصين على معرفة الحجة والدليل.

ثانياً: نماذج من الشروح المدللة للمرشد المعين

وقد كان متن المرشد المعين من بين الكتب التي حظيت بقسط لا بأس به من جهود هؤلاء العلماء والفقهاء، ولعل من أبرز هذه الشروح المدللة التي انتشرت أخيراً بين طلبة العلم نذكر ما يلي:

- 1 - المبين على أدلة المرشد المعين للأستاذ امحمد عمراوي.
- 2 - العرف الناشر في شرح وأدلة فقه متن ابن عاشر للمختار بن العربي الجزائري الشنقيطي.
- 3 - مواهب العظيم من أدلة ابن عاشر في الضروري من علوم الدين لمحمد بن عبد الله بن محمد بن عبيد القناني الشنقيطي المدني.
- 4 - التمكين لأدلة المرشد المعين لأحمد الورايني.
- 5 - المرشد المعين على الضروري من علوم الدين بإكليل الدليل المبين من الكتاب والسنة للشيخ عبد الرحمن بن عوف كوني المغربي.

